والشاشات والمظلّات. ووُلِدَ عددٌ كبيرٌ من المعماريين بهذه العناصر الجديدة، التي لم يقتصر استثمارها على التوظيف العقلاني نسبةً للظروف المناخية في العراق، بل استُخدمت لتحقيق تأثيراتٍ جماليةٍ أيضًا، مع استخدام عنصر اللون أحيانًا. ونرى في أعمال عبد الله إحسان كامل ورفعة الجادرجي وفيليب هيرست شغفًا باستعمال هذه المنظومات لمختلف الأغراض.

وانطوت الخمسينات على نجاحاتٍ معماريةٍ مرموقةٍ في النشاط العمرانيّ في العراق. ومن أجمل الأمثلة، وأكثرها ريادةً في نقل الممارسات المعماريّة ضمن منظورٍ جديد، هو مبنى مشغل الهلال الأحمر في العلوية، الذي صمّمته المعماريّة ألين جودت الأيوبي في عام ١٩٤٨. كما تُمثّل الأعمال التي صمّمها عبد الله إحسان كامل وجعفر علّاوي أهميةً خاصةً في «بانوراما» عمارة الخمسينات. وصمّم علّاوي مبانٍ عديدةً منها ثانوية الحريري في الأعظمية (١٩٥٣)، المدرسة الجعفرية (١٩٤٦)، مبنى سامي سعد الدين في ساحة الرصافة (١٩٤٩) وعمارة مرجان في الباب الشرقي (١٩٥٣–١٩٥٤)، التي تعتبر من الأمثلة الرائدة في عمارة الخمسينات. أمّا مدحت علي مظلوم، فقد كان غزير الإنتاج، وصمم مسبح الأمانة (١٩٤٧)، سينما الأرضروملي (١٩٤٦–١٩٤٧) ومبنى جمعية التمور العراقية في الصالحيّة بمطلع الخمسينات، بالإضافة إلى مبنى كلّية الاقتصاد والسياسة (١٩٥٦) وكازينو ١٤ تموز قرب مطار المثنّى، بالاشتراك مع هشام منير (١٩٥٨–١٩٥٩). وتبقى صورة عمارة الخمسينات ناقصةً إن لم نتطرّق إلى نتاجات المعماريين العراقيين الشباب الذين أنهوا دراستهم المعماريّة في الخارج، واقتصرت أعمالهم على تصاميم بيوتٍ سكنيةٍ بأسلوبٍ حديث.

كلّف مجلس الإعمار معماريين معروفين وعالميين بتصميم مختلف المشاريع ذات المقاييس الكبيرة. بعض تلك المشاريع لم يُبنَ، مثل: تصاميم فرانك لويد رايت لمبنى الأوبرا في جزيرة أم الخنازير ومبنى البريد والبرق، ضمن المخطّط المدينيّ لبغداد، الذي صمّمته شركة مينوبريو–سبنسلي–ماكفارلاين، وتصاميم ويلم مارينوس دودوك لمباني الشرطة ووزارة العدليّة، التي تشمل المحاكم والطابو (السجلّ العقاري) والتسوية، وتقع في المركز المدنيّ، وتصاميم ألفار ألتو لمتحف الفنون الجميلة ومديرية البريد والبرق العامة. بعضٌ آخر من تلك المشاريع بُني، ولا يزال قائمًا إلى اليوم: حرم جامعة بغداد الشاسع، لفالتر غروبيوس ومكتب تاك (TAC)، الذي نُفّذ جزءٌ منه في منتصف الثمانينات، والمدينة الرياضية من تصميم لو كوربوزييه، التي صُمّمت أوّلًا لموقع قصر المؤتمرات الحالي، وبُنيت لاحقًا على ضفّة دجلة الأخرى في العام ١٩٨٠. وبُني العديد من المباني المهمّة في حيّ كرّادة مريم، الذي يُعرف الآن بالمنطقة الخضراء، أو العالمية، مثل: وزارة ومجلس الإعمار (وزارة التخطيط راهنًا) لجيو بونتي عام ١٩٦٢، ومباني القصر الجمهوري والمجلس الوطني من تصميم جي. بي. كوبر في العام ١٩٥٣، وبعدها مباشرةً، مبنى السفارة الأميركية لخوسيه- لويس سيرت. وأخيرًا، كُلّف قسطنطين دوكسيادس بتصميم مخطّطٍ عامٍّ وخطة إسكانٍ لمدينة بغداد. وساهم تدفّق الأفكار المعماريّة الجديدة والتجارب والنجاحات وحتى الإخفاقات، بوضع أساسٍ متينٍ للعمارة الحديثة والممارسات المعماريّة اللاحقة في العراق.

العمارة في الستينات والسبعينات: بناء الحداثة العراقيّة

وَلّدت الثورة الوطنية العراقية (١٤ تمّوز، ١٩٥٨) هويّةً معقّدة، غالبًا ما فسّرها البعض كانشقاقٍ عن العالم الغربي، فيما اعتبرها بعضٌ آخر بمثابة فرصةٍ لاستيعاب إرث الحداثة العالمية. وكانت الكلاسيكيّة الإسلاميّة الجديدة لمحمّد مكيّة، ومفهوم الإقليميّة العالمية الذي وضعه رفعت الجادرجي، من التيّارات السائدة في المجال الفني والمعماري الجديد. ومن أبرز شخصيات هذا الجيل يمكن ذكر: هشام منير، قحطان المدفعي، قحطان عوني، حازم التكّ، المكتب الاستشاري المركزي (مهدي الحسني)، سعيد مظلوم، المكتب الاستشاري العراقي (رفعت الجادرجي، عبد الله إحسان كامل، إحسان شيرزاد)، ومعاذ الألوسي، وغيرهم.

واتّسم النشاط المعماري في البلاد خلال العقدين اللاحقين بنضوج الأعمال الإبداعية وتكثيفها، وهذا اقتضى نشوء تكويناتٍ معماريةٍ جديدة، وظهور أسماءٍ جديدةٍ في الحياة المعماريّة المهنيّة، إذ حاول النشاط المعماري أن يواكب متطلّبات النمو والتقدم والازدهار.

وممّا عزّز النشاط الإبداعي في هذه المرحلة كان وفرة موارد ماليةٍ كبيرةٍ تمتّع بها الاقتصاد العراقي، خصوصًا في حقليّ إنتاج النفط وتسويقه، إضافة إلى الازدياد المطّرد في عدد المعماريين العراقيين، خصوصًا خريجي المدارس المعماريّة العراقيّة الثلاث، والحضور الواسع لمهندسين في اختصاصاتٍ مختلفة، فضلًا عن التأثير الإيجابي والسريع للنجاحات المعماريّة العالميّة على ممارسات المعماريين العراقيين. وبنى هؤلاء تجاربهم على مرحلة التأسيس، من خلال دراستهم المتأنية لخصوصية البيئة المحلية، وتوظيفهم الواعي لمفرداتها النابعة من الطبيعة المناخيّة والمواد الإنشائية المحلّيّة والخبرة البنائية التقليدية، كما عملوا على مواءمة ذلك مع التكوينات المعماريّة والفنّيّة الحديثة. وأضحى أمرًا طبيعيًا أن تكون أعمال المهندسين العراقيين في هذه المرحلة أكثر نضوجًا وعمقًا، إذ تعاونوا بجدٍّ مع معماريين محترفين أجانب، كانوا يعملون في مؤسساتٍ مهنيةٍ وأكاديميةٍ تابعةٍ للدولة، وكذلك مع مكاتب أجنبيةٍ ذات مستوى رفيع، كمؤسسة بولسيرفس، ومكتب تاك (TAC)، الذي قام بالاشتراك مع مكتب هشام منير ومشاركوه، بتنفيذ تصميم فالتر غروبيوس لجامعة بغداد. وقدّمت المرحلة عددًا كبيرًا من التحدّيات والمشاريع، وتمتّع المعماريّون العراقيّون بالخلفيّة الثقافيّة والرصانة المهنيّة وبسعة الأفق، ممّا أدى إلى تراكم خبرتهم المهنيّة. وما لبث أن تراجع تكليف المعماريين العالميين المشهورين بتنفيذ المشاريع، واقتصر الأمر على توظيف خبرة هؤلاء الأجانب (أكثرهم من دول أوروبا الشرقية)، في دوائر الدولة والمكاتب الخاصة، لاستشاراتٍ ومشاريعٍ معدودة.

وبدأت في منتصف السبعينات، وما تلاها، المغالاة باستخدام مفردات التراث المعماري العربي- الإسلامي. وواكب هذه الظاهرة شيوع تفسيراتٍ ساذجة، في أوساطٍ واسعةٍ من المجتمع، لمعضلة التراث والمُعاصرة في العمارة.

وأرست موجة عمارة ما بعد الحداثة إبهامًا في الأهداف والعمليّات المعماريّة، ممّا مهّد لحصول هذا الانعطاف. وتركت هذه الموجة أثرًا في ممارسات المعماريين العراقيين، خصوصًا فيما يتعلق بتوظيف رموز العمارة الماضية في التكوينات المعاصرة.

العمارة في الثمانينات وما بعدها: انشقاقٌ كبير

أدّى إطلاق المشاريع العامة الكبرى في الثمانينات إلى تحويل العاصمة إلى موقع بناءٍ هائل. وكُلّف المعماريون الأجانب والعراقيون بتجسيد الطموحات الوطنية في مبانٍ ضخمة. بيد أن الأمر تبدّل بعد غزو الكويت في عام ١٩٩٠، وحرب الخليج الأولى، وما تلاها من حصارٍ استمر من العام ١٩٩١ حتى ٢٠٠٣.

وشهدت بداية الثمانينات إنشاء قصر المؤتمرات (١٩٧٨–١٩٨٢)، للمعماري هيكي سيرين، وإعادة إعمار الكرخ وشارع حيفا، ثمّ المشروع الطموح لإعادة إعمار منطقة باب الشيخ، وغيرها من المشاريع المهمّة. ونُفّذ مشروع أبي نوّاس في منتصف الثمانينات (عبّاد الراضي/مكتب بلاينر، وسكاراب وجسبرسن)، حيث امتازت هذه المجموعة من الأبنية السكنيّة المصنوعة من الطوب، بهياكلها الخفيضة التي اعتمدت منظورًا يعانق منعطف دجلة، وبألواح الطاقة الشمسية على أسطحٍ مستوية، وهي الأولى من نوعها في العراق. هذا بالإضافة إلى إطلاق المسابقة المعماريّة العالميّة لتصميم مسجد الدولة الكبير في العام ١٩٨٣، التي شاركت فيها مكاتبُ استشاريةٌ عراقيةٌ مثل مكتب محمد مكيّة ومشاركوه، مكتب دار العمارة (قحطان المدفعي) ومكتب الدراسات الفنّيّة (معاذ الألوسي)، بالإضافة إلى مكاتبٍ عالمية، مثل مكتب روبرت فنتوري، مكتب ريكاردو بوفيل، ومينورو تاكياما. وسرعان ما توقّفت النجاحات المعماريّة بعد اشتداد الحرب مع إيران في مطلع الثمانينات.

شهدت التسعينات كل تلك الأحداث الكبرى التي أثّرت على مسار النشاط المعماري في العراق، فتوقّف بالكامل تقريبًا أثناء سنوات الحصار، باستثناء نشاط دائرة الهندسة التابعة لرئاسة الجمهورية. لكنّ الأخير كان فقيرًا في لغته المعماريّة، ومقارباته التصميميّة، واستخدامه المفرط للعناصر التزيينيّة.

التحدّيات الراهنة

طرأت حربٌ جديدةٌ واحتلالٌ عسكريٌ في العام ٢٠٠٣، الأمر الذي حال دون إنتاج عمارةٍ ذي شأن، وتسبّب بتدنّي النشاط المعماري. وتشهد البلاد تبدّلات سياسية واجتماعية، في ظلّ العنف الإرهابي، الذي غلّب المسائل الأمنية الطارئة على إمكانات التجديد المدينيّ. وعلى رغم من ذلك، تُخطّط المشاريع المنفردة في بغداد، كمثل المشروع الفائز في مسابقة مبنى الأمانة العامة لمجلس الوزراء في المنطقة الخضراء، الذي صمّمه منهل الحبّوبي ومكتب كاب (CAP) الاستشاري (٢٠١١)، بالإضافة إلى عدّة مشاريع لمكتب زهاء حديد، منها المبنى الجديد لمجلس النواب في المنصور (٢٠١١)، البنك المركزي العراقي في الجادرية ودار الأوبرا في الصالحية.

أمّا بالنسبة للمشهد المدينيّ العام في البلاد، فقد شُوّهت العديد من الأبنية بالتزيين المختلط بواسطة ألواح الحجر والمرمر والألومينيوم. وفي هذه الأجواء المتقلّبة، بتنا لا نرى في السمات البنائيّة والجماليّة والمدينيّة إلّا اضمحلالًا، نتمنّى زواله. ومع ذلك، نُفّذ في الآونة الأخيرة عملان ممتازان لترميم مَعْلَمين من عصر الحداثة في بغداد، كانا قد قُصفا ونُهبا في العام ٢٠٠٣. المعلمان هما وزارة التخطيط لجيو بونتي (١٩٦٢)، على الضفة الغربية من دجلة، ومبنى البريد والبرق لرفعة الجادرجي (١٩٧٣)، على ضفّة دجلة الشرقية. إنّهما مؤشّران إيجابيان في محيطٍ قاتم.